الطب عند قدماء المصريين

الطب هو أشرف العلوم العمرانية والإنسانية باعتباره العلم النافع الباحث عن صحة الأبدان وسلامتها وطرائق علاجها من العاهات والأمراض عارضية كانت أو غيرها، فلا يستغني عنه أحد في الوجود مع العلم بأن سهولة الانتفاع به تتفاوت بين الطبقات، فهو بالإجماع أولى العلوم بتوجيه الهمم وبذل المجهودات لتوسيع نطاقه العلمي والعملي.

ومقصدي في هذه العجالة أن أتقدم إل القراء بملخص ترجمت به كتاب الدكتور يوليوس جيار (**Jules Guiart**) معلم تاريخ الطب في جامعتي ليون وكلوج (**Cluj**) من أعمال روماني وهو أيضا عضو في جمعية أكادمي الطب.

تكلم هذا الأستاذ الذائع الشهرة العظيم الخبرة المتضلع في كتابه هذا عن الطب عند قدماء المصريين باللغة الفرنسية بأسلوب جمع لباب الفوائد.

وما أحوجنا بصفتنا أفراد سلالتهم إلى الوقوف على كل ما يؤثر عنهم من المؤلفات تاريخية أو علمية ،ليقتبس الفرع عن أصوله ما يزيده تبصرة في شئون الحياة ووسائل الارتقاء ولا ريب ؛ فكم أوصل الاكتشاف العصري بتدرجه في الأجيال إلى نفائس ودقائق من أثارهم الباهرة وعلومهم الوافرة، وهي اللسان الناطق أبد الدهر برسوخ أقدامهم في ميادين الجهاد العمراني ونبوغ مداركهم في الفنون العرفانية، التي امتازت بها أجيالهم الزاهرة ولا يباريهم فيها سابق أو لاحق.

تناقلت أخبار الثقات وأقلام الباحثين والمؤرخين تفصيلات كبرى متوالية ،عما أظهره بحث العلماء وجهاد المطلعين من آثار متنوعة في أقاصي البلاد والمغاور والفلوات وكهوف الجبال وقممها، ومن بينها ما وجدت نقوشه في جدران معبد ادفو ودار كتب المعبود حورس التي كانت بجواره وكثير غيرها من المعابد والهياكل؛

والمغارات لم تكن خالية من أماكن شيدت للاحتفاظ بكتبهم ومؤلفاتهم الثمينة؛ وقد لعبت بها أيدي الدمار أخنى مرور العصور على ما كان لها من بقية. فلم نقف إلا على البعض من أسماء الأمكنة التي كانت آهلة بأنفس الذخائر ،حتى كأنما بطون الأرض غاضت بما كان فيها غيرة عليها واشمئزازا من جهل الإنسان وعدوانه على بني نوعه، وتكريما لهذه الصناعات والفنون من أن تصبح في حوزة غير الإكفاء، فيسيئون استعمالها منتبذين واجبات الأمانة ومقتضيات الحكمة والفطنة.

يحزننا أن نروي هذه الحقائق والأسف مليء جوانحنا ،لأن اعتساف الظروف في الفترات الغابرة جعل عناية الظافرين فيها محصورة على الإرهاق بجبروتهم وانصرافهم إرادتهم إلى استمرار الشعوب في جهالتها ليدوم بذلك استرقاق النفوس وتسخير الأجسام، ولم يعبأ المسيطرون بدور الكتب ومحتوياتها، بل عمد البعض إلى إحراقها وتدميرها، ومنهم من كان يلقيها في لجج البحار لتسير فوقها الدواب كالجسور والبرازخ بين الجهات. فلو أبقت لنا الغيوب ولو جزيئات من هذه الكليات لتكلفت بأقوى وسائل السعادة وكانت لدينا الآن سراجا نستضيء به فيما تزداد حاجتنا إليه كل جيل عما قبله، وكنا بها نفاخر باستحقاق وشمم جميع الشعوب الذين لآن لم يبلغوا عشر معشار ما كان لقدماء المصريين من سمو الفطنة وعلو الهمة في الحضارة والمدنية.

فإشهار المؤلف في كتابة المذكور بعد أطنان في هذا المعنى إلى أن الصدف أوقفت الباحثين على بعض أوراق بردية في فنون الطب كأوراق إبرس وبرلين وأكسفورد، أماطت اللثام عن بعض مكنونات وأطراف من علم الطب عند قدماء المصريين وهي على عظم أهميتها التاريخية والعلمية لا تزيد عن كونها آثار أقدام تدل على مسير طويل.

وثابت بالاستقراء أن مصر كانت مهد الحضارة إليها، يرجع في وسائل الارتقاء العمراني، وأن منها كان استمداد كثير من الشعوب القاطنة على شواطئ البحر

الأبيض المتوسط، كأنه لطبيعة الموقع مع استعداد القاطنين به تأثيرا في القوى النفسية وسعة المدارك وتوقد الأذهان فتنبعث بهذه المزايا إل ما تهيئها له حمية الفكرة مفضلة التعمق في الفنون والمعارف التي هي نور الارتقاء عن التسفل في حضيض المزريات المهلكة لمن انهمكوا في ارجاسها، الذين ساءت عقباهم أفل نجم سمودهم. وتاريخ مصر في الارتقاء العمراني لا يقل عن خمسة آلاف عام كان فيها أبناؤها يرتعون في نعيم البحبوحة والرخاء والرفاهية والسعادة. وفي ذاك الوقت كان كثيرا من الأمم الأخر على منتهي السذاجة والخشونة. وأول من تلق عن قدماء المصريين وشعبهم المجيد العلوم والصناعات أهل أوروبا الجنوبية كاليونان والرومان وغيرهم الذين نقلوا أحاسن الحضارة والمدنية إلى أوروبا الغربية وبواسطتهم سرى ذاك الضياء الوهاج على فجاج كانت بينها وبين شعبنا النابغ حجب التنائي وتقاطع الصلات.

فمصر التي ثبت لها حق السبق وفضل التفوق في العصور الأولى بالفنون العمراني والعقلي والاقتصادية ثبت لها كل هذا الفضل على جميع الأمم في علوم الطب، التي هي أهم عماد للكيان الإنساني منذ المهد إلى اللحد.

مبدأ الطب عند قدماء المصريين

حاجات الإنسان في أدوار حياته تحمله بقوة الإدراك على معالجة ما يصادفه من الصعوبات في شؤونها تخفيفا لآلامه بوجه عام، فيكابد ما يرشده إليه إلهام الفطرة لتذليل المصاعب وابتكار الوسائل ابتكار أولياء حتى إذا أفلح اجتهاده في أحداها يوما ما، حاول التحسين في الأسلوب توسلا لزيادة المنفعة متنقلا في التجارب بالتفاهم والاسترشاد ممن حوله الأكثر ممارسة في الأعمال والأقدم منه عهدا فيها. وهكذا يتدرج الإنسان بحكم التطورات إلي التوسع بالتصورات وإبراز المبتكرات فرحا بما ينجح فيه اختياره مغتبط الحال والضمير بحسن ابتداعه وبنشر اختراعه والتشويق إلى الانتفاع به. وبتوالي العناية والاستباق في هذا المضمار أمكن التفنن في المخترعات وحبب إلى النفوس الابتداعي الصناعي بأنواعه ، والاستعانة به في الضروريات

العمرانية التي أحدثها البعض واستحسانها غيره وشاع استعمالها تنشيطا وتقليدا ،حتى اشتد التقليد في العادات وأوجب على البعض التقيد في مقتضاها بما لم تكن إليه به حاجة وما قل عن التطورات الإنسانية في الشؤون العامة وحب الاقتداء (ممن تقاصر بهم الحظ) بذوي الأقدام وأولى السعة، وفي اقتباس ما تدعو إليه حاجته من الفنون والعلوم النافعة يقال بإذعان عن الطب وعلومه الهامة الذي هو أشد ما يحتاج إليه الأفراد والجموع والآحاد والملوك. وبقدر هذا الاحتياج الملازم لإدوار الحياة في كل زمان ومكان تندفع الرغبات التي تلقي قواعده العلمية لتدفع بها آلام الأسقام وخطر الأمراض الفتاكة.

ومن المسلمات الفطرية أن لكل مرض علاجا إلا الموت. فالإنسان يجبره حبه للحياة وحرص على المزيد من أيامها لمواصلة البحث للتخلص مما يعتريه ولينجي عشيرته وأعزته بما استطاع به ردء السوء عن نفسه، فالوازع الجبري على الاستفادة بالطب من هذه الوجهة يعادل الحرص الدائم لصون رمق الحياة من التلف بالوسائل الممكنة. فلكل شعب ولكل إقليم حرص متواصل على الانتفاع بالمألوفات عندهم للعلاجات الطبية واستعمال العقاقير الملائمة لأمزجتها باقتضاء عناصر التكوين وقابلية الطباع.

وللمؤرخين وكبار العلماء آراء كثيرة في الكيفية التي بها رسخت في الأذهان طرائق العلاجات الطبية النافعة وخواص العقاقير ،وحصر أنواع معينة منها للتداوي بها في أمراض معدودة دون غيرها وأساليب التحليل والتركيب والمزج إلى غير ذلك ،مما تكلفت بخوض عبابه المؤلفات الفنية التي جادت بها على الأمم قرائح الباحثين والمنقبين الذين كثيرا ا تجشموا الصعاب واقتحموا المشاقة والأسفار للعثور على ما يتممون به مأموريتهم العلمية في استظهار خزاص النباتات التي أودعها فيها خالق الكون وهو الإله القادر الذي بيده المحايا والممات.

وفي جملة ما يحسن إيراده بصدد هذا البحث المفيد ما نقله المكتشف الشهير

والمؤلف الكبير سترابون الجغرافي اليوناني، الذي كان من أكابر العلماء الإجلاء في القرن الأول للمسيح، إذ قال أن قدماء المصريين في مبادئ أدوارهم كانوا لا يستكبرون عن استقصاء طرق البحث والتقاط الحكمة أينما وجدت ولو من لدى العامة، وخصوصا في علاجات الأمراض المجهولة لديهم لاعتقادهم أن الشوارد العلمية القويمة التي لم تصل إليها إحاطتهم قد تكون من المعلومات المتواترة عند أهل البادية والقرى النائية ، بواسطة المخالطة لكبار الرحالة المتجولين في الأقاليم أو في ذاكرة الكهول اللذين تزودوا من السنين الطوال بتجارب علمية عملية لا تقل أهميتها اعتبارا عما يقرره فحول العلماء في فنونهم المتفرغين لها. فكانوا إذا أصيب أحدهم بمرض وتعاطى عليهم علاجه يضعونه في أشهر الميادين وأبواب الوصول إلى المدائن والطرقات الموصلة إلى المجتمعات العامة ويبقونه في كل جهة زمنا يناسب كثرة المارين بها ،ليرى الناس في ذهابهم وإيابهم أولئك المرضى، ومع كل مريض حارس يصف للرائين مبادئ الإصابات وسير المرض وعوارضه الملازم والزائلة. وكان من عادات القوم حب الاستطلاع فالحارس للمريض يتباحث مع كل زمرة تلتف حوله عما قد يكون في ذاكرتهم علميا أو في تجاربهم عرفيا عما يشابه حالة المريض وطرق المعالجة التي أوصلت للشفاء من مثله.

وكان حب القوم للاستطلاع بهذا الأسلوب غريزيا ومقترنا بالعطف والرأفة ومشاطرة أهل المريض في آلامهم ولهذا كانوا يقدمون معلوماتهم بصراحة وإخلاص ووضوح تام فيتلقاها حارس المريض بأذن واعية وقلب سليم ويبادر بتنفيذها تشوقا لشفاء المريض.

وكانوا بقوة ارتباطهم يحرصون على تدوين المواصفات والتجارب ويلقنها عارفوها لغيرهم حتى كأنما العلة التي أصابت أحدهم جاءت مهادا وسببا علنيا للشفاء عند كثيرين باستعمالهم المعالجة التي تلقاها، فيرشد إليها الغير قياما ببعض الشكر لله تعالى على منة الشفاء وعلى حسن الإلهام إلى ما به نجحت المعالجة. ولا غرابة في ذلك فلقوة الارتباط القومي في صوالح الشعوب وتعاونها ببعضها مالا تحرصه الأقلام.

ومن هذا البيان نتأكد أن علم الطب كباقي العلوم الوضعية المرتبطة باحتياجات الحياة وضروريات الفطرة منشئوه التجارب والممارسة والثبات في الاكتشافات والاستمداد من الحوادث في الإرشادات التي يجب الإذعان لها بإمعان الروية والتطبيق العملي في الأسباب والنتائج لكل ذلك وتقدير كل بارقة علمية حتى قدرها مهما كان مصدرها.

ولما امتاز به قدماء المصريين من المكابدة الصادقة ،فيتلقى وتدوين الفنون النافعة وتعليمها لنجباء أبنائهم الذين يتوسمون فيهم الاستقامة والأمانة قد وضعوا ما ثبت عندهم علمه ونفعه عن أمراض كثيرة وعوارض الإصابة بها وأدوار شدتها والنقاهة منها وطرق معالجتها ووسائل التوقي منها في مذكرات صحيحة الأسانيد مذيلة بالنتائج القويمة، وتواصلوا على تدوينها في سجلات بعيدة عن العبث والتلاعب وإيداعها في كفالة المسيطرين على المعابد والهياكل، وقرروا أن يباح الإطلاع عليها لمن يشاء تحت رقابتهم (ولا تنقل من أماكنها) وأن يتلقى الطلاب من الكهنة كل ارضاد عن تركيب العقاقير ومعرفة أقواها فعلا وأقر بها نفعاً وتأثيراً.

وهذه السجلات باستمرارها في حوزة الكهنة وإكثارهم مطالعتها وتدوين ما يستجد من كل نوع بالسجل المخصص له ،جعلت أولئك الكهنة كأطباء اختصاصيين في أمراض كعديدة وزادت في مكانتهم عند الشعوب سيطرة ورهبة، ومنهم من كان يستفيد بها في أن ينتحل لذاته أسرارا روحانية طلبا للمزيد من وفرة النذور واكتناز الأموال (ولا عجب في ذلك فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة).

بعد أن مكث هؤلاء الفضلاء على تدوين المعلومات بتلك الطريقة بعض الأجيال، رأى المفكرون ومن خلفهم جمع شتاتها وتدوينها صورا متعددة لادخارها في الأماكن التي يكثر تردد الزائرين إليها في المواسم والأعياد ونحوها عليها تسهيلا لاقتباس المحتاجين منها في كل شيء حسب الطوارىء عندهم، وسموا تلك المجموعات الثمينة (الكتاب المقدس) واشتهر عندهم بكتاب أمير **(Ember)** ونسبوه للمعبود

تحوت واتخذوه كقوانين أساسية للفنون والعلوم الطبية، وغرسوا في الأذهان أن مصدره وحي إلهي فلا يجوز لأحد فيه تغيير ولا تبديل، ولا مسئولية على من يباشر علاج إنسان إذا أبطأ في الشفاء ما دام مؤديا نصوص الكتاب كما هي، أما إذا خالفها في شيء وحل بالمريض أي خطر فجزاء المعالج بعد ثبوت جريمته إعدامه على مرأى من الناس ليتعظوا حتى لا يفرط المؤتمنون على الأرواح في إسعافها بما تحتاجه طبقا للقواعد العلمية الثابتة.

وبرسوخ الاحترام في النفوس لهذا الكتاب لم يستطيعوا توسعا في الاختراع والاكتشاف، ومكثوا على ذلك زمنا مديدا لأن هذه الطريقة ،وإن كانت تعد بطيئة في النمو الفني إلا أنها كانت مسندة إلى تجارب قويمة وإرشادات صحيحة.

مدارس الطب في المعابد والهياكل

بتوالي العصور ازداد القوم عناية بالعلوم الطبية، وعولوا على تعميم تداولها وتسهيل تلقينها بين الأقاليم ،حتى لا تبقى كنزاً تحصره الصدور ويعز الوصول إل نفائسه. ورأوا أن إنشاء المدارس في عواصم الأقاليم لتلقى وتلقين هذا الفن أضمن لفائدة الشعب وأليق بخدمة الإنسانية ،كيلا يبقى الطب كطلاسم يحتكرها أفراد ذوو مطامع يقدمون فائدتهم الشخصية عن إسعاف المرضى بما يحتاجون مهما كانوا في أشد ظروف الخطر (كما هي العادة الممقوتة عند البعض من أبناء جيلنا الحاضر الذين توارثوا هذه الأنانية الظالمة من بعض الأجانب).

واختاروا لهذه المدارس أشخاصا من الموثوق بذمتهم وعفافهم وفضلهم المتخلقين بالفضيلة ذوى الحنان والرأفة بالضعفاء، وجعلوا من شعارهم في زى الخلقة حلق رؤوسهم ولبس جلود الفهد على ظهورهم واتخاذهم الثياب المنسوجة من الكتان الغليظ كشعار يعرفون به أينما وجدوا.

وبدأوا بإنشاء هذه المدارس في الجهات الأكثر شهرة وعمرانا، وكان من بينهما

مدارس منفيس وعين شمس وطيبة وصا الحجر. وكانت المدارس الموجودة فيها كجامعات كبرى لتلقى الفنون الطبية بأنواعها ثم بعض علوم اللاهوت والحساب والهندسة والفلك.

ومن قوانينهم أن لا يرشح لها من الشبان وغيرهم إلا من يكون كثير الصمت ،شهيرا بالثبات والحلم وأديت له عملية الختان، وأن يكونوا بعد تلقى الدروس وتلقينها في أماكن التعبد خلف المحاريب والهياكل حتى لا تدنس نفوسهم بمخالطة السفاء فيعرضهم ذلك إلى النقائص.

وإذا ارتكب أحدهم هفوة تمس شهرته الأدبية وكرامة انتسابه إلى هذه المعاهد السامية يغلظ عليه في العقاب (وقد يؤول إلى الإعدام) أملا في أن لا يلتحق بها إلا المتصفون بالفضيلة والأخلاق المهذبة ليحسن الأخذ عنهم بالتقوى والورع، لأن الأطباء أمناء من قبل الخالق على حياء الأمم فلا تكون أرواحهم العوبة في أيدي أشخاص غير أمناء لم يزينوا علومهم بالاستقامة النفسية.

ولم يكن للتعليم أمد محدود من السنين بل كان التلامذة يتلقون المبادئ الدراسية في بعض الشهور، ثم ينتقي الأساتذة الأكثر نجابة إلى فرق أخرى يمتازون بها، وينتخبون من هذه الفرق الممتازة طبقات للأرقى وهكذا حتى لا يحرم التلميذ النابغ من ثمرات التفوق ومميزات الفطنة.

ومتى أتم الطالب دراسته وأدى الشهادة النهائية في حفلات كانوا يعتنون بها لذلك تؤدي (أمام الهيكل المقدس وبين يدي الأساتذة وجمهور الرؤساء من الحكام) اليمين القانونية بكتمان أسرار العلوم عن غير أهلها وأن يؤدي الطبيب مأموريته ي خدمة المجتمع الإنساني بالصدق للجميع وبالرأفة على الفقير ويبدأ حياته العملية في هذا المضمار بتمضيه بعض المدارس الموجودة فيها كجامعات كبرى لتلقى الفنون الطبية بأنواعها ثم بعض علوم اللاهوت والحساب الهندسة والفلك.

ومن قوانينهم أن لا يرشح لها من الشبان وغيرهم إلا من يكون كثير الصمت

شهيرا بالثبات والحلم وأديت له عملية الختان، وأن يكونوا بعد تلقي الدروس ، وتلقينها في أماكن التعبد خلف المحاريب والهياكل حتى لا تدنس نفوسهم بمخالطة السفهاء فيعرضهم ذلك إلى النقائص.

وإذا ارتكب أحدهم هفوة تمس شهرته الأدبية وكرامة انتسابه إلى هذه المعاهد السامية يغلظ عليه في العقاب (وقد يؤول إلى الإعدام) أملا في أن ل يلتحق بها إلا المتصفون بالفضيلة الصادقة والأخلاق المهذبة ليحسن الأخذ عنهم بالتقوى والورع، لأن الأطباء أمناء من قبل الخالق على حياة الأمم فلا تكون أرواحهم العوبة في أيدي أشخاص غير أمناء لم يزينوا علومهم بالاستقامة النفسية.

ولم يكن للتعليم أمد محدود من السنين بل كان التلامذة يتلقون المبادئ الدراسية في بعض الشهور، ثم ينتقي الأساتذة الأكثر نجابة إلى فرق أخرى يمتازون بها، وينتخبون من هذه الفرق الممتازة طبقات للأرقى وهكذا حتى لا يحرم التلميذ النابغ من ثمرات التفوق ومميزات الفطنة.

ومتى أتم الطالب دراسته وأدى الشهادة النهائية في حفلات كانوا يعتنون بها لذلك تؤدي (أمام الهيكل المقدس وبين يدي الأساتذة وجمهور الرؤساء من الحكام) اليمين القانونية بكتمات أسرار العلوم عن غير أهلها وأن يؤدي الطبيب مأموريته في خدمة المجتمع الإنساني بالصدق للجميع وبالرأفة على الفقير ويبدأ حياته العملية في هذا المضمار بتمضية بعض السنين في وظيفتي الكهانة والطب ويتفرغ بعدها لعلومه الطبية.

ومن المأثور عنهم إعداد عيادتهم في المعابد والهياكل لفقراء المرضى ومداواتهم مجانا. وكان التلامذة لمدارس الكهنوت يتمرنون عل الأعمال الجراحية وغيرها، ليساعدوا فيها كبار الأساتذة عند كثرة لوافدين إلى هذه المستشفيات، ويختارون للمعابد التي بها المدارس أماكن فيحاء ويقيمون حولها البساتين والحدائق الحاوية لكثير من النباتات الصالحة لتحضير العقاقير والمراكبات العلاجية منها في معاملها الفنية

المخصص لهذه التجهيزات حسب القواعد العلمية.

وكانوا يعتنون بالآلات الجراحية بأنواعها ،ولا يبعد أن يكون ما اكتشف منها في مدينتي منفيس وطيبة من آثار تلك المستشفيات.

وكان لكل مستشفى كلية خاصة بكل ما يستطاع إيجاده من الفنون العامة، وأخصها ما يتعلق بالطب ليستعين بها كبار الأساتذة في حل المسائل الغامضة التي تمر عليهم وقت العمل. وبعد المراجعة وتمحيص البحث يدون المكلف به حقيقة ما استنتجه في كل حادثة على حدتها ليكون ذلك بمثابة ملاحق تكميلية يرجع إليها أيضا في مثل هذه الأحوال. وهكذا كان كل جيل يؤدي في أدواره خدما علمية جليلة لفائدة بني الإنسان في الأجيال القادمة.

والكتب الممتازة بالأهمية والاعتبار كانت تجعل في خزائن منفردة بمكان محفور في المباني. وكثيرا ما وجدت في الاكتشافات بالمكاتب التي كانت مشيدة في العصور الأولى أوراق عديدة من البردى مكتوب عليها فصول ذات فائدة في علوم متنوعة تدل على حرص القوم واجتهادهم في تدوين المباحث وترقية المعارف جهد استطاعتهم.

رسم تمثال نصفي لطبيب مصري قديم من الحجر الجيري من الدولة القديمة أي يرجع تاريخه إلى ٥٠٠٠ سنة وهو محفوظ اليوم بمتحف اللوفر بفرنسا

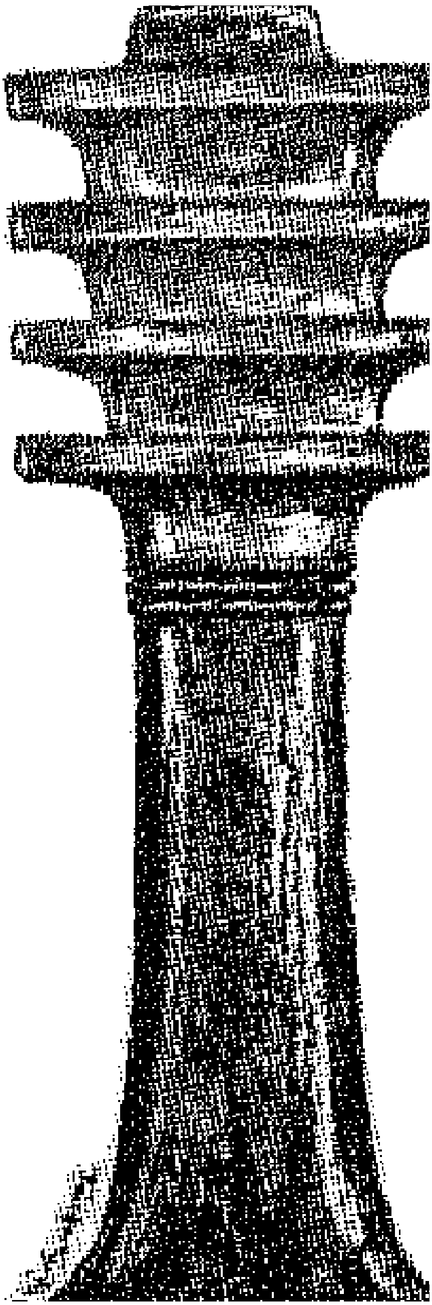

علامة البقاء والخلود

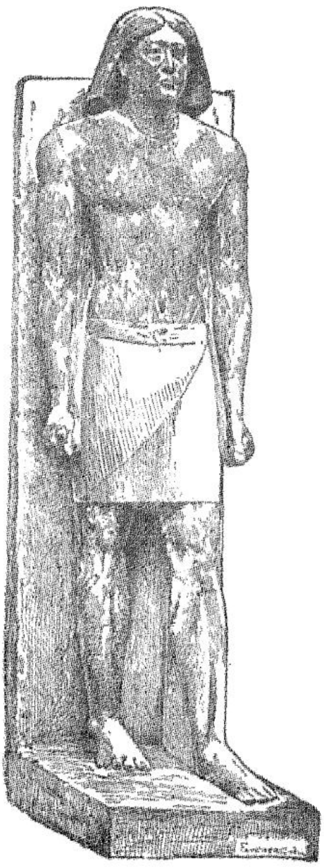

(تمثال رقم ٢٢٥)

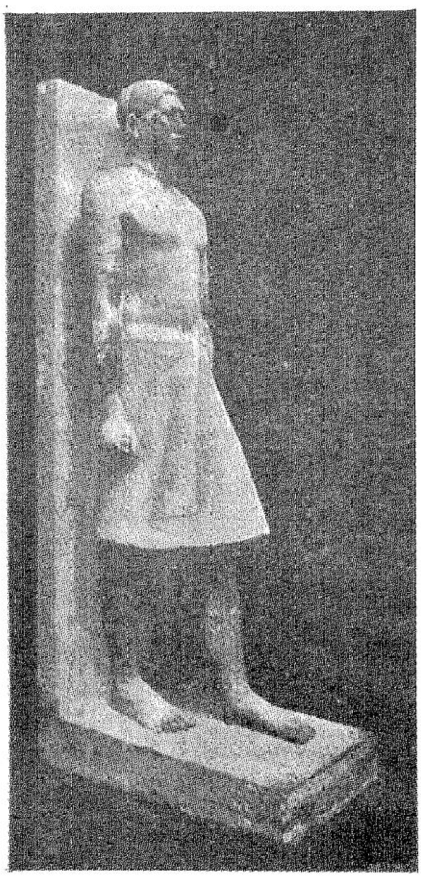

(تمثال رقم ٢٢٤)

تمثالان من الحجر الجيري وهما أكبر من حجمها الأصلي ينساب لرع نفر كاهن فتاح إله مدينة منفيس. وهذان التمثالان ينوبان عن جثة الكاهن متى بليت لتحل فيهما روحه متى أرادت. والتمثال المرقوم برقم ٢٢٤ يمثله برأس شعره مجذوذ إشارة إلى أنه كاه والتمثال المرقوم برقم ٢٢٥ يمثله واقفا متشحا بالملابس العادية والأصل بالمتحف المصري بالطبقة السفلى القاعة C.